أول ما عرفت جورجي زيدان

كان ذلك في السنة الثامنة أو التاسعة من هذا القرن. وكنت حينئذ مدرسًا للغة العربية وأدبها بكلية الفرير بالخرنفش من القاهرة. ثم زادوني حصة كل يوم بمدرسة الفرير الابتدائية بالفجالة. وكان تلاميذي بهذه المدرسة من الصبية الذين تختلف أسنانهم بين الثامنة والعاشرة، وأكثرهم من أبناء الجالية اللبنانية التي تكثر في هذا الحي، فكانوا صباح الوجوه حسان الهندام، ولكنهم كانوا من حيوية الطفولة ومرح الحداثة في حركة دائمة وزقزقة مستمرة ! فكنت أتسع لهم حينًا فأنذرهم باللسان، وأضيق بهم حينًا فأزجرهم باليد.

وكان من بينهم صبي خفيف لا يكاد يستقر على حالة ولا يستمر على وضع لا يكتفي بالعبث في موضعه ولا بالحديث مع جاره، وإنما ينتقل من درج إلى درج، ويقوم من تلميذ إلى تلميذ: يأخذ من هذا أيقونة أو صورة، ويعطي ذاك لعبة أو " بلية ". وفي حالي الأخذ والعطاء لابد من كلمة مسموعة أو حركة خشنة أو ضحكة مرتفعة. فكنت أستدعيه إلي وألويه بالكلمة اللينة وأمنية " بالعلامة الطيبة " فيسكن قليلا ثم يثقل على أعصابه السكون فينفجر بالحركة انفجارا يزعج هدوء الأطفال ويهوش نظام الفصل. فأستدعيه ثانية وأستبقيه بجوار المنصة، رجلاه مصفوفتان ويداه مرسلتان ووجهه إلى الحائط. فلا يلبث على هذا الوضع إلا دقيقة أو أقل ثم يهز كتفيه ويطلق يديه، ثم يستدير بوجهه ويرسل عينيه في جوانب الفصل فتشخص إليه الأبصار. وتفتر له الشفاه وينتظر الأطفال ماذا يكون من أمر هذا البطل الذي يتحدى سلطان المعلم. فلم أجد بدا من ضربه " علقة " على يديه بكعب الكتاب. فتلقى الضربات كاظما على جِرَّته حتى انتهيت، ثم مضى مسرعا إلى مقعده وكفأ وجهه على يديه فوق الدرج وأخذ يبكي. وخشع رفاقه من الخوف فلزموا الهدوء، وأحسنوا السماع حتى دق الجرس.

وفي اليوم التالي أقبل علي في أول الحصة هذا التلميذ المتمرد وقد اتخذ هيئة الرجل الجاد وسمت الغاضب المبتسم فألقى إلي رسالة كانت في يده، ثم عاد إلى مكانه في هدوء وقعد في صمت. ففضضت الرسالة فإذا فيها ما نصه:

أستاذنا الفاضل؛

" ولدك وولدي شكري زيدان يشكو من معلمه لا يعامله بالعطف الذي يعامل به الآخرين، وأنه قسا عليه بالأمس قسوة لم يتعودها منه. والأطفال بطبيعته يبالغون. ولكن الأستاذ الفاضل يتفق معي على أي حال في أن أنجح الوسائل في التربية الحديثة هي تحبيب الأطفال بالنظام والعمل من طريق الملاينة والحيلة. وأرجو مستقبلا أ، يجد الأستاذ من تلميذه ما يحب من الطاعة، وأن يجد التلميذ من أستاذه ما يرغب من العطف. وانتهز هذه الفرصة لأقدم إلى الأستاذ تحيتي...

المخلص

" جرجي زيدان "

طويت الرسالة ووضعتها في جيبي لأعيد قراءتها بعد. ونظرت إلى شكري وكان يحاول أن يقرأ أثرها وجوابها في وجهي، فابتسمت له وابتسم لي، وجرت الريح بيني وبينه رخاء بالسلام والحب حتى انقضى العام. وباعدت بيننا مفارق الطريق واتجاهات الحياة فلم أره إلى اليوم !.

عدت إلى الرسالة فقرأتها مرة أخرى، ثم أخذت أصعِّد النظر فيها وأصوبه وأنا أقول لنفسي: إذن هذا الصبي المضروب هو ابن جرجي زيدان، وهذا الكلام المقروء هو كلام صاحب الهلال، وهذا الأدب الرفيع مؤرخ الإسلام ! لقد قرأت لصاحب هذه الرسالة القصيرة ووالد هذا الرسول الصغير، كل ما كتب من قصص وألف من كتب ونشر من بحوث، فنشأت بيني وبينه على البعد تلك الصلة الروحية التي تصل بين الفكر الناشئ والفكر المنشئ، وتربط بين الطالب المريد والأستاذ الواصل.

وكان جرجي زيدان يومئذ قد انفرد في العالم الإسلامي كله بالتأليف والكتابة فيما ليس للعرب والمسلمين به علم من تاريخ العروبة والأدب والحضارة والإسلام بالأسلوب الواضح والتقصي العجيب والعرض الطريف، فكان ما ألفه من الكتب في تاريخ آداب اللغة العربية، وما أنشأه من القصص التاريخية الإسلامية على نحو ما فعل ولترسكوت، فتحًا مبينًا في ميدان الثقافة العربية قرب الموارد لكل باحث، ومهد السبيل لكل كاتب.

وكنت في هذه السنة نفسها طالبا بالجامعة المصرية الأولى بجانب صديقي طه حسين ومحمود زناتي، فترامى إلينا أن مجلس إدارة الجامعة قد قرر تعيين الأستاذ جرجي زيدان أستاذا لكرسي التاريخ الإسلامي بالجامعة، فهزنا هذا الخبر وسرَّنا أن نكون تلاميذ للمؤرخ الكبير عن طريق المحاضرة، بعد أن تلمذنا إليه طويلا عن طريق القراءة، ولكن بعض الآراء المتزمتة الرجعية قد ساورت بعض الأذهان المتخلفة الغبية. فحملت الأستاذ الكريم السمح على أن يعتذر من قبول هذا المنصب بعد أن أعد المحاضرات وصور الخرائط ! واستمر الببغاء على الكرسي الجامع الوثير، تردد ما قال الطبري وابن الأثير !.

ثم عدت إلى الرسالة مرة ثالثة أتملاها وأتأملها ثم كتبت الجواب عنها بالاعتذار والشكر وأرسلته مع البريد. ثم رأيت بعد أيام أن أوره في إدارة الهلال، فتكشف لي من لقائه الجميل، وحديثه العف، واطلاعه الواسع، وتواضعه الجم، عن طراز من العلماء فريد لم ألق مثله فيمن لقيت من العلماء في الأزهر ودار العلوم والجامعة.

والحق أن جرجي زيدان مدين بعلمه وفضله ونجاحه لأخلاقه. وأشد أخلاقه أثرا في حياته صدقه وجده ودأبه ومثابرته.

تخرج في أكثر العلوم على نفسه، وشق طريقه في الصخر بسن قلمه، واختار لجهاده الأدبي الميدان البكر وأعد له ما استطاع من قوة الصبر وصدق العزيمة، فانتصر انتصارا عز على غيره، وعاد بالنفع والخير على قومه.

ولزيدان شرف الريادة لمنتجعي الأدب، وفضل السبق إلى فن القصة، وحسن القدوة في مهنة الصحافة، وحق الأستاذية في الهلال على كل قارئ. وتاريخ الأدب العربي الحديث يعترف المرجل بكل أولئك.

لم أكن حين عرفت صاحب الهلال على حال من السن والثقافة تؤهلني لصداقته. كنت في بداية الشباب وكان في نهاية الكهولة. وكنت من شداة الأدب وكان من أقطاب العلم، فضلت العلاقة بيني وبينه علاقة طالب بأستاذ وصلة قارئ بمؤلف. فلما قويت أناملي على حمل القلم، وصلح تفكيري لتغذية الهلال، كان قلمه جف وذهنه قد انطفأ!.

لذلك آثرت أن يكون أول ما أكتب للهلال تحية من القلب العروف أقدمها لذكراه، وباقة من الأدب الصدوق أنثرها على قبره.